Current Studies in Nahj-ul-Balaghah Open Access

Vol. 9, No. 1, (Issue 17) Autumn & Winter 2025: 179-192
DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505

ORIGINAL ARTICLE

An Analysis of the Concept of the Order of Creation in Nahj al-Balagha: A Comparative Re-reading in Light of Self-Organization Theory

Akbar Tohidlou

Department of Islamic Learning, National University of Skills (NUS), Tehran, Iran.

Correspondence:
Akbar Tohidlou
Email: tohidlou53@yahoo.com

Received: 12 Aug 2026
Accepted: 13 Aug 2026

ABSTRACT

The concept of the order of creation in Nahj al-Balaghah, particularly in terms of explaining the structure and relationships governing the universe, has the potential to be examined within a dialogue between Islamic theology and contemporary philosophy of science. In complexity science, self-organization theory investigates the conditions and processes through which ordered patterns and organized structures can emerge from the internal interactions of components within complex systems. Using a conceptual and comparative analytical approach, this study compares the components of the order of creation in Nahj al-Balaghah with the fundamental concepts of self-organization theory and examines the limits of establishing a relationship between these two frameworks. The findings indicate that, in Nahj al-Balaghah, the order of creation is described through such features as the proportionality of components, the interconnectedness of beings, the harmony of the cosmic system, and the law-governed character of nature. By contrast, self-organization theory explains order at the level of natural mechanisms through nonlinear interactions, feedback, far-from-equilibrium dynamics, and the formation of collective patterns. A comparison of the two frameworks shows that their most significant point of dialogue lies in their holistic and relational understanding of order; however, this convergence does not imply conceptual or scientific equivalence between them. Accordingly, self-organization may be regarded, at the level of scientific explanation, as one mechanism through which order emerges in certain natural systems, without the theory by itself making claims about the ultimate origin of the laws of nature or the purpose of creation. The study concludes that distinguishing between the level of explaining natural mechanisms and the level of philosophical-theological interpretation of order can provide a methodologically sound basis for dialogue between complexity science and Islamic philosophy.

KEYWORDS

Nahj al-Balagha, order of creation, self-organization, complexity sciences.

How to cite

Tohidlou, A. (2025) An Analysis of the Concept of the Order of Creation in Nahj al-Balagha: A Comparative Re-reading in Light of Self-Organization Theory. *Current Studies in Nahj-ul-Balaghah*, 9(1), 179-192. (DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505)

Copyright © 2025 The Authors. Published by Payame Noor University.
This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International license (https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/). Non-commercial uses of the work are permitted, provided the original work is properly cited.

دراسات حديثة في نهج البلاغة

السنة التاسع، العدد الأول (المتوالي ١٧) خريف و شتاء ١٤٠٤ش/ ١٤٤٧ق. (١٧٩-١٩٢)

DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505

«مقاله پژوهشی»

تحليل مفهوم نظام الخَلق في نهج البلاغة؛ إعادة قراءةٍ مقارنة في ضوء نظريّة التنظيم الذاتي

اكبر توحيدلو

عضو هيئة تدريس، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة المهارات الوطنية، طهران، إيران.

المؤلف المسؤول:
اكبر توحيدلو

بريد االكتروني: tohidlou53@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٤٤٨/٠٢/٢٨
تاريخ الاستلام: ١٤٤٨/٠٣/٢٨

إرسال الاستشهاد إلى:
توحيدلو، اكبر. (١٤٤٧). تحليل مفهوم نظام الخَلق في نهج البلاغة؛ إعادة قراءةٍ مقارنة في ضوء نظريّة التنظيم الذاتي. *دراسات حديثة في نهج البلاغة*، ٩(١)، ١٧٩-١٩٢.
(DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505)

المخلص

يتمتع مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة، من منظور بيان البنية والعلاقات السائدة في الكون، بإمكانية الدراسة ضمن إطار الحوار بين اللاهوت الإسلامي وفلسفة العلم المعاصرة. وفي علوم التعقيد، تتناول نظرية التنظيم الذاتي دراسة الشروط والعمليات التي يمكن أن تنشأ من خلالها الأنماط المنتظمة والهياكل المنظمة عن التفاعلات الداخلية لمكونات الأنظمة المعقدة. تقارن الدراسة الحالية، باستخدام منهج التحليل المفاهيمي والمقارن، بين مكونات نظام الخلق في نهج البلاغة والمفاهيم الأساسية لنظرية التنظيم الذاتي، وتستكشف حدود إمكانية التقارب بين هذين الإطارين. تُظهر النتائج أن نظام الخلق في نهج البلاغة يُوصف بمكونات مثل تناسب الأجزاء، وترابط الموجودات، وانسجام نظام الوجود، وانتظام الطبيعة؛ في حين تفسر نظرية التنظيم الذاتي النظام على مستوى الآليات الطبيعية، من خلال التفاعلات غير الخطية، والتغذية الراجعة، والديناميكيات البعيدة عن التوازن، وتشكّل الأنماط الجماعية. وتبيّن مقارنة الإطارين أن أهم إمكانية للحوار بينهما تكمن في النظرة الشمولية والعلائقية للنظام؛ ومع ذلك، لا يعني هذا التقارب التكافؤ المفاهيمي أو العلمي بينهما. وبناءً على ذلك، يمكن اعتبار التنظيم الذاتي، على مستوى التفسير العلمي، إحدى آليات بروز النظام في بعض الأنظمة الطبيعية، دون أن تفصل هذه النظرية بمفردها في المنشأ النهائي لقوانين الطبيعة أو غاية الخلق. وتُظهر خاتمة البحث أن التمييز بين مستوى تفسير الآليات الطبيعية ومستوى التأويل الفلسفي اللاهوتي للنظام يمكن أن يوفر أساساً منهجياً للحوار بين علوم التعقيد والحكمة الإسلامية.

الكلمات الدليلية:
نهج البلاغة، نظام الخلق، التنظيم الذاتي، علوم التعقيد.

حق نشر هذه الوثيقة يعود لمؤلفيها. ١٤٤٧. ناشر هذه المقالة هو جامعة بيام نور.

تم نشر هذه المقالة بموجب الشهادة التالية ويسمح بأي استخدام غير تجاري لها بشرط االستشهاد بالمقالة بشكل صحيح وبما يتوافق مع الشروط المذكورة في العنوان أدناه.

Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International license (https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/)

المقدمة

شكّلت التحولات التي شهدتها العقود الأخيرة في فلسفة العلم وعلوم التعقيد مراجعةً جذرية للفهم الكلاسيكي لنظام الطبيعة. ففي حين كان نظام الكون في الفيزياء الكلاسيكية يُفسَّر في الغالب استناداً إلى قوانين حتمية وعلاقات خطية، أثبتت الأبحاث المعاصرة في مجالات الأنظمة المعقدة، والديناميكا الحرارية البعيدة عن التوازن، وعلم الأحياء النظري، ونظرية الشبكات، أن كثيراً من الأنماط المنتظمة في الطبيعة تتشكّل عبر التفاعلات الداخلية لمكوّنات النظام ومن خلال العمليات المعروفة بـ«التنظيم الذاتي». ولا يُمثّل هذا التحوّل مجرّد تغيير في النماذج العلمية فحسب، بل يترتّب عليه تداعيات بالغة الأهمية على فلسفة العلم، وميتافيزيقا قوانين الطبيعة، والعلاقة بين العلم والدين، إذ يطرح تساؤلات جديدة حول منشأ النظام، والانتظام القانوني، والغائية في الكون. وفي التراث الإسلامي أيضاً، تُعدّ مسألة نظام الخَلق من أكثر القضايا جوهرية في اللاهوت والفلسفة. ويُقدّم «نهج البلاغة»، بصفته أحد أبرز النصوص الإسلامية، رؤيةً متّسقة للكون، حيث يقوم الخَلق على أسس من الحكمة، والعلم، والتقدير الدقيق، والانسجام، والسنن الإلهية الثابتة. ففي خطب عديدة، يدعو الإمام علي (عليه السلام) –من خلال وصفه لنظام السماوات والأرض، والكائنات الحيّة، والظواهر الطبيعية– المخاطَب إلى إعمال الفكر في تماسك العالم وانسجامه، مُعتبراً نظام الكون دليلاً على الحكمة والتدبير الإلهيين. ومن ثمّ، لا يُمثّل مفهوم النظام في «نهج البلاغة» مجرّد مقرّرة اعتقادية فحسب، بل ينطوي على أبعاد إبستمولوجية، وأنطولوجية، بل ومنهجية أيضاً، مما يجعله قابلاً لإعادة القراءة في سياق الحوار مع القضايا المعاصرة في فلسفة العلم. رغم التوسّع الكبير في الدراسات المتعلّقة بنظرية التنظيم الذاتي، إلا أن جلّ الأبحاث قد انصبّت على الأبعاد الفيزيائية والرياضية والبيولوجية لهذه النظرية، وقلّما تطرّقت إلى تداعياتها الفلسفية واللاهوتية. وفي المقابل، انشغلت دراسات «نهج البلاغة» في غالبيتها بمواضيع كالعدالة، والحكم، والأخلاق، والتربية، والأنثروبولوجيا، فيما ظلّت الأبحاث المتصلة بفلسفة الطبيعة ونظام الخلق في هذا المصنَّف –ولا سيما في تفاعلها مع نظريات «علوم التعقيد» المعاصرة– محدودة للغاية. كذلك، فقد ركّزت الدراسات القائمة في حقل «العلم والدين» في معظمها على القرآن الكريم، ونادراً ما عُومل نهج البلاغة بوصفه نصاً فلسفياً يُؤسَّس عليه حوار مع النظريات العلمية الحديثة. وبناءً على ذلك، تبرز فجوة بحثية واضحة في مجال التحليل المقارن لمفهوم نظام الخلق في «نهج البلاغة» ونظرية التنظيم الذاتي.

ويسعى البحث الحالي إلى ردم هذه الفجوة من خلال تبنّي مقاربة متعدّدة التخصصات. وفي سياق هذا البحث، تُدرَس نهج البلاغة بوصفها مصدراً لاستجلاء المكوّنات الفلسفية لنظام الخلق، في حين تُحلَّل نظرية «التنظيم الذاتي» باعتبارها أحد الأطر المحورية لتفسير النظام في العلوم المعاصرة. ولا يرمي هذا البحث إلى إثبات التطابق أو التنبؤ بهذه النظرية في ثنايا نهج البلاغة، بل يبتغي استكشاف آفاق الحوار النقدي بين هذين النظامين المعرفيين؛ وهو حوار من شأنه أن يُسهم في تحقيق فهم أدق لتعاليم نهج البلاغة، والإسهام في الوقت ذاته في تطوير مباحث فلسفة العلم.

وبناءً على ذلك، تكمن **الإشكالية الرئيسية للبحث** في التساؤل عن الأسس الأنطولوجية التي يستند إليها مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة، وما هي علاقة هذه الأسس بنظرية التنظيم الذاتي في علوم التعقيد؟

وفي سياق **الإجابة عن هذه الإشكالية**، تسعى المقالة، من خلال تحليل البنية المفاهيمية للنظام في نهج البلاغة، إلى بيان نقاط التقارب والافتراق بينها وبين نظرية التنظيم الذاتي.

ويتلخص **السؤال الرئيسي** للبحث في: ما هي الإمكانات التي يتيحها مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة للحوار مع نظرية التنظيم الذاتي في فلسفة العلم المعاصرة؟

الهدف الرئيسي لهذا البحث هو تقديم تحليل مقارن لمفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة في ضوء نظرية التنظيم الذاتي، وتقييم إمكانات حواره مع فلسفة العلم المعاصرة. وفي هذا السياق، تشمل الأهداف الفرعية استخلاص مكوّنات نظام الخلق من نهج البلاغة، وتحليل الأسس النظرية للتنظيم الذاتي، وبيان نقاط الالتقاء

والافتراق بين المنهجين، وتقديم نموذج للحوار بين المعارف الإسلامية وعلوم التعقيد.

ضرورة هذا البحث: ويمكن بيانها على ثلاثة مستويات:

أولاً، من المنظور النظري، حيث يتطلّب تطوير الدراسات متعددة التخصصات بين العلوم الإسلامية وفلسفة العلم أبحاثاً ترتكز على التحليل المفاهيمي والحوار النقدي، لا على المقاربات المتسرّعة أو ادعاءات الإعجاز العلمي.

و**ثانياً**، من المنظور البحثي، إذ إن دراسة العلاقة بين نهج البلاغة ونظرية التنظيم الذاتي لم تحظَ بالاهتمام الكافي حتى الآن، مما يُشير إلى فجوة واضحة في الأدبيات العلمية في هذا المجال.

و**ثالثاً**، من المنظور التطبيقي، حيث يمكن أن تُوفّر نتائج هذا البحث إطاراً لفهم أعمق لمفهوم النظام في الفكر الإسلامي، والاستفادة منه في الحوارات المعاصرة بين العلم والفلسفة واللاهوت.

وتكمن جدّة هذا البحث في كونه يُحلِّل مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة بالاعتماد على الإطار النظري للتنظيم الذاتي وفي سياق فلسفة العلم المعاصرة، ويسعى من خلال الحوار النقدي بين العلم والدين إلى الكشف عن إمكانات التقارب وحدود الافتراق بين النظامين المعرفيين.

نظرية التنظيم الذاتي

نشأة نظرية التنظيم الذاتي وتطورها

تُعدّ نظرية «التنظيم الذاتي»[1] من أهم إنجازات علوم التعقيد في النصف الثاني من القرن العشرين، وهي تُشير إلى العملية التي ينبثق فيها النظام والبنية بشكل عفوي وتلقائي، دون وجود مُتحكِّم مركزي، وعبر التفاعلات الداخلية بين مكوّنات النظام. وقد نشأت هذه النظرية في بادئ الأمر في حقلَي الفيزياء والديناميكا الحرارية، غير أن نطاقها توسّع تدريجياً ليشمل الكيمياء، وعلم الأحياء، والعلوم المعرفية، والاقتصاد، ونظرية الأنظمة، وفلسفة العلم، حتى غدت اليوم أحد الأطر النظرية المحورية لتفسير سلوك الأنظمة المعقدة. (Haken, 1983: 191–227). جاءت نشأة هذه النظرية كرد فعل على محدوديات النموذج الميكانيكي في الفيزياء الكلاسيكية. ففي الرؤية الكلاسيكية، كان يُنظر إلى الكون بوصفه آلة، حيث يمكن التنبؤ بجميع ظواهره استناداً إلى قوانين حتمية وعلاقات خطية بين أجزائه. وعلى الرغم من نجاح هذا النهج في تفسير العديد من الظواهر الطبيعية، إلا أنه واجه قصوراً في بيان تكوّن الهياكل المعقدة، وسلوك الأنظمة البعيدة عن التوازن، وبروز الأنماط المنتظمة في الطبيعة. ومنذ ستينيات القرن العشرين فصاعداً، خلص الباحثون إلى أنه لا يمكن تفسير الكثير من التراكيب الطبيعية بالاعتماد حصرياً على النماذج الخطية والاختزالية، بل لا بد من مراعاة دور التفاعلات غير الخطية، وآليات التغذية الراجعة، والديناميكيات الداخلية للأنظمة. (Haken, 1983: 191–227). شكّلت أبحاث إيليا بريغوجين حول الديناميكا الحرارية للأنظمة البعيدة عن التوازن نقطة تحوّل محورية في هذا المسار. فقد أوضح بريغوجين أنه، خلافاً للفهم التقليدي للقانون الثاني للديناميكا الحرارية، لا تؤدي زيادة الإنتروبيا حتماً إلى مزيد من العشوائية؛ بل إنه في الأنظمة المفتوحة، التي تتبادل الطاقة والمادة باستمرار مع محيطها، تتاح إمكانية نشوء بُنى منتظمة ومستقرة. وقد أطلق على هذه الظاهرة تسمية «البُنى المبدِّدة[2]»، مبيّناً أن النظام يمكن أن ينبثق من صميم العمليات الديناميكية البعيدة عن التوازن. (Prigogine & Stengers, 1984). طوّر هرمان هاكن مفهوم التنظيم الذاتي بشكل منهجي من خلال تأسيسه لنظرية «التآزُر[3]». فمن وجهة نظره، عندما يتفاعل عدد كبير من مكوّنات نظام ما فيما بينها، تنشأ تلقائياً أنماط كُليّة ومتماسكة تُنظّم سلوك النظام بأسره. وفي هذا الإطار، لا يُعدّ النظام نتاج توجيه من مركز تحكّم، بل هو نتيجة طبيعية لتفاعل المكوّنات وانبثاق «مُعامِلات النظام[4]» التي تُوجّه سلوك النظام ككل. (Haken, 1983: 191–227). وفي سياق متصل، طوّر ستيوارت كوفمان هذه الفكرة في مجال علم الأحياء التطوري، مُستدلاً على أن العديد من سمات الأنظمة الحية لا تنجم حصرياً عن الانتقاء الطبيعي، بل هي أيضاً نتاج لعمليات التنظيم الذاتي.

1. Self-Organization
2. Dissipative Structures
3. Synergetics
4. Order Parameters

فمن وجهة نظره، لا تُعدّ الحياة والتعقيد البيولوجي مجرّد ثمرة للانتقاء الداروينى فحسب، بل إن لقوانين التنظيم الداخلي دوراً جوهرياً في تشكُّلهما. (Kauffman, 1993). ومن منظور فلسفة العلم، لا تُعدّ نظرية التنظيم الذاتي مجرّد نموذج علمي لوصف سلوك الأنظمة الطبيعية فحسب، بل تُقدّم إطاراً حديثاً لفهم منشأ النظام في الطبيعة. وتُبيّن هذه النظرية أن العديد من البُنى المنتظمة يمكن أن تنبثق دون تصميم مباشر على مستوى النظام ذاته، وعبر القوانين التي تحكم تفاعلات مكوّناته فحسب. غير أن هذه النظرية لا تفصل في المنشأ النهائي لقوانين الطبيعة ولا في سبب وجودها، بل تقتصر على تفسير الآليات الطبيعية لتكوّن النظام. وبناءً على ذلك، تتاح إمكانية إجراء حوار منهجي ونقدي بين التفسير العلمي للتنظيم الذاتي والتأويلات الفلسفية واللاهوتية لمنشأ النظام؛ إذ إن كلاً منهما يتصدّى لمستوى مختلف من مستويات التفسير.

وبناءً على ذلك، يُعدّ التنظيم الذاتي أحد أهم نظريات علوم التعقيد في تفسير نظام الطبيعة؛ فهي نظرية تنأى بنفسها عن الرؤية الميكانيكية للكون، وتُبيّن أن النظام يمكن أن ينبثق من صلب التفاعلات الديناميكية وغير الخطية والشبكية. وهذه السمة بالذات هي ما يجعلها إطاراً ملائماً للحوار مع النصوص الفلسفية والدينية، بما في ذلك «نهج البلاغة»؛ ذلك النص الذي يعدّ نظام الكون تجلياً للحكمة والعلم والتدبير الإلهي، مما يتيح له أن يخوض حواراً مع التفسيرات العلمية المعاصرة على مستوى مختلف ولكنه مكمّل لها.

أسس ومكوّنات نظرية التنظيم الذاتي

ترتكز نظرية التنظيم الذاتي على فرضية مفادها أن النظام والبنية ينبثقان في كثير من الأنظمة الطبيعية عبر التفاعلات الداخلية بين مكوّناتها، ودون وجود مُنظِّم مركزي. ويختلف هذا المنهج عن النظرة الاختزالية في الفيزياء الكلاسيكية؛ إذ يُشدّد على دور العلاقات، والتفاعلات، والديناميكية الجماعية لتلك المكوّنات. (Haken, 1983؛ Nicolis & Prigogine, 1977). يُعدّ انفتاح الأنظمة (الأنظمة المفتوحة) من أهم الأسس التي ترتكز عليها هذه النظرية. فالأنظمة ذاتية التنظيم هي تلك الأنظمة التي تتبادل باستمرار الطاقة أو المادة أو المعلومات مع محيطها. ويحول هذا التبادل دون بلوغ النظام حالة التوازن الترموديناميكي التام، مما يُوفّر الشروط اللازمة لانبثاق بُنى جديدة. ومن ثمّ، لا يتشكّل النظام في مثل هذه الأنظمة في حالة السكون، بل في الحالة الديناميكية البعيدة عن التوازن. (Prigogine & Stengers, 1984: 349). ويتمثّل المبدأ الثاني في عدم خطية التفاعلات[1]. ففي الأنظمة المعقدة، لا تكون العلاقة بين العلّة والمعلول خطية ومتناسبة دائماً؛ بل إن التغيّرات الطفيفة يمكن أن تُفرز آثاراً هائلة، وعكس ذلك، قد تُخلّف التغيّرات الكبيرة آثاراً ضئيلة على سلوك النظام ككل. وتؤدي هذه السمة إلى تجاوز سلوك النظام لمجرّد مجموع سلوك مكوّناته، مما يُفضي إلى انبثاق أنماط جديدة يتعذّر التنبؤ بها من خلال تحليل كل مكوّن على حدة. (Mitchell, 2009: 32). ومن المكوّنات الأساسية الأخرى التغذية الراجعة[2]. ففي الأنظمة ذاتية التنظيم، تؤثر المكوّنات بشكل مستمر على بعضها البعض، وتتأثر بنتائج أفعالها. ويمكن للتغذية الراجعة الإيجابية أن تعزز نمطاً ناشئاً، في حين تسهم التغذية الراجعة السلبية في الحفاظ على استقرار النظام. ويوفر التفاعل بين هذين النوعين من التغذية الراجعة الأرضية المناسبة لتشكل هياكل مستقرة وديناميكية في آن واحد. (Capra & Luisi, 2014: 510). ومن المفاهيم الأساسية الأخرى في هذه النظرية مفهوم «الانبثاق[3]». ويقصد بالانبثاق أن خصائص النظام الكلي لا يمكن تفسيرها بمجرد دراسة مكوّناته الفردية؛ إذ إنه نتيجة لتفاعل هذه المكوّنات، تتجلى خصائص وأنماط جديدة لا توجد في أيّ من المكوّنات بمفردها. وعلى سبيل المثال، يُعدّ الوعي في العلوم المعرفية، والسلوك الجماعي لمستعمرات النمل، والأنماط الجوية، أمثلة على الظواهر المنبثقة. وفي هذه الرؤية، يكون النظام الكلي ثمرة للعلاقات القائمة بين المكوّنات، وليس سمة مستقلة لكل مكوّن على حدة. (Mitchell, 2009: 298) ومن منظور فلسفة العلم، يُشكّل التنظيم الذاتي تحوّلاً جوهرياً في فهم قانونية الطبيعة. ففي الفيزياء الكلاسيكية، كانت قوانين

1. Nonlinearity
2. Feedback
3. Emergence

الطبيعة تُنظَر في الغالب بوصفها قواعد ثابتة ومحدَّدة سلفاً، تتحكّم في سلوك الأنظمة تحكّماً تاماً؛ غير أن علوم التعقيد أثبتت أنه، إلى جانب القوانين الأساسية، تلعب كيفية تفاعل المكوّنات دوراً حاسماً في تشكُّل النظام. وبناءً على ذلك، لا يُعدّ النظام مجرّد نتيجة لوجود القانون فحسب، بل هو ثمرة الديناميكية المستمرة للنظام والعلاقات القائمة بين مكوّناته. (Hooker, 2011: 217). على الرغم من أهمية نظرية التنظيم الذاتي، إلا أنها تواجه بعض القيود. وأهم هذه القيود أنها تبيّن كيفية انبثاق النظام، غير أنها تلزم الصمت إزاء منشأ القوانين الطبيعية، وعلة وجودها، وسبب امتلاك الكون لقابلية التنظيم الذاتي. ولهذا السبب، ميّز العديد من فلاسفة العلم بين التفسير الآلي[1] والتفسير الأنطولوجي[2]. وتنتمي نظرية التنظيم الذاتي في جوهرها إلى المستوى الأول، في حين يظل التساؤل حول المنشأ النهائي للنظام والانتظام القانوني مدرجاً ضمن حيز الفلسفة واللاهوت. (Ellis, 2006: 655).

ومن هذا المنظور، لا تُشكّل نظرية التنظيم الذاتي منافساً للتفسيرات اللاهوتية، بل تُعدّ إطاراً علمياً لبيان الآليات الطبيعية لتكوُّن النظام. وهذه السمة بالذات هي ما يُتيح إمكانية الحوار بينها وبين النصوص الدينية؛ إذ يتصدّى العلم لتفسير «كيفية» انبثاق النظام، في حين يتناول اللاهوت الـ «لماذا» و«الأساس الأنطولوجي» للنظام. وهذا التمييز هو ما سيُشكّل أساس التحليل المقارن في البحث الحالي بين نظرية التنظيم الذاتي ومفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة.

التحليل المفاهيمي لنظام الخلق في نهج البلاغة

يُقدّم «نهج البلاغة» رؤية شاملة ومتّسقة للكون، حيث يقوم الخلق على أسس من النظام، والحكمة، والتقدير الدقيق، والقانونية. وعلى الرغم من أن مصطلح «النظام» بصفته اصطلاحاً فلسفياً لم يُستخدم بشكل متكرر في جميع أنحاء «نهج البلاغة»، إلا أن مفاهيم مثل التقدير، والتدبير، والحكمة، والميزان، والإتقان، والسنن الإلهية، تُشكّل شبكة مفاهيمية تُعبّر عن نظام الكون المتناغم والهادف. ومن هذا المنظور، لا يقتصر مفهوم النظام في نهج البلاغة على مجرد الترتيب المنتظم لأجزاء العالم فحسب، بل يُعبّر عن علاقة حكيمة بين الموجودات، والقوانين التي تحكمها، والغاية النهائية للخلق (الخطبة: ٩١؛ ابن أبي الحديد، ١٤٠٤هـ: ٦/ ٣٩٨). وفي وصفه لخلق العالم، يُبيّن الإمام علي (عليه السلام) أنه ثمرة للعلم والقدرة الإلهيين، مُؤَكّداً أنه لم ينبثق أي جزء من الوجود عن صدفة أو فوضى. ففي الخطبة الأولى من نهج البلاغة، وُصف خلق السماوات والأرض والملائكة وسائر المخلوقات بعبارات مثل «التقدير» و«الأحكام» و«الإتقان»؛ وهي تعابير تدل على أن نظام الوجود قد تشكّل على أساس من التقدير الدقيق والعلاقات المنتظمة. وفي هذه الرؤية، لكل موجود مكانته المحددة، ووظيفته المعيّنة، ودوره المتناغم في منظومة الخلق، وهذا الانسجام ذاته هو تجلٍّ للحكمة الإلهية (الخطبة: ١). ومن منظور نهج البلاغة، نظام الكون يشمل كافة مراتب الوجود. فحركة الأفلاك، وتعاقب الليل والنهار، وانتظام الفصول، وإنبات النبات، وخلق الحيوانات، بل وحتى العلاقات الاجتماعية بين البشر، تجد جميعاً معناها في إطار السنن الإلهية. وتنظر هذه الرؤية الشمولية إلى النظام بوصفه سمة ذاتية لمنظومة الخلق بأسرها، وليس مجرد خاصية تتعلق بجزء من العالم الطبيعي. ولهذا السبب، يدعو الإمام علي (عليه السلام) الإنسان إلى المشاهدة والتأمل والاستدلال انطلاقاً من النظام القائم في الكون، عادّاً إياه من أهم سبل معرفة الله تعالى (الخطبة: ١٨٥).

ومن أهم سمات مفهوم النظام في نهج البلاغة ارتباطه الوثيق بالحكمة. ففي هذا النص، لا يُعدّ النظام مجرد نتاج للعلاقات الميكانيكية البحتة بين أجزاء العالم، بل هو تجلٍّ للحكمة الإلهية. والحكمة هنا تعني وضع كل موجود في موضعه المناسب، وتحقيق أفضل نظام ممكن بلوغاً لغاية الخلق. ومن ثمّ، فإن العلاقة بين النظام والحكمة علاقة جوهرية؛ فحيثما وُجد النظام الحق، حضرت الحكمة، وكلاهما يُعبّر عن العلم والإرادة الإلهيين (ابن ميثم البحراني، ١٤٠٦هـ: ١/ ٣٥). وعلاوة على ذلك، يُوثّق نهج البلاغة صلة وثيقة بين النظام والقانونية. فالكون، من منظور الإمام

1. Mechanism

2. Ontology

علي (عليه السلام)، يخضع لقوانين ثابتة لا تتبدل، وقد سلّطها الله على الوجود بأسره. وهذه القوانين، التي تُعرف في الأدبيات القرآنية بـ«السنن الإلهية»، تكفل استمرارية نظام الخلق وانسجامه وقابليته للتنبؤ. وبناءً على ذلك، لا يُعدّ نظام الكون أمراً عَرَضياً أو وليد صدفة، بل هو ثمرة سيادة القوانين الإلهية العامة التي تسري على جميع الموجودات.

ومن المنظور الفلسفي، يمكن اعتبار هذا النهج ضرباً من الواقعية إزاء النظام؛ إذ إن النظام في نهج البلاغة يُعدّ سمة حقيقية وموضوعية للكون. فمن خلال تأمل هذا النظام، يمكن للإنسان أن يبلغ معرفة تتجاوز الظواهر الطبيعية، وينتقل من عالم المحسوس إلى الحكمة والتدبير الإلهيين. وبناءً على ذلك، لا تقتصر وظيفة النظام في نهج البلاغة على الجانب الوصفي فحسب، بل تنطوي على أبعاد إبستمولوجية ولاهوتية أيضاً، مما يجعله جسراً يربط بين عالم الطبيعة ومبدأ الوجود. وهذه السمة بالذات هي ما يُشكّل نقطة انطلاق الحوار بين نهج البلاغة والنظريات المعاصرة في فلسفة العلم. فإذا كانت نظرية التنظيم الذاتي تسعى إلى بيان الآليات الطبيعية لتكوُّن النظام، فإن نهج البلاغة يتناول الأساس الأنطولوجي، والحكمة، والغاية من هذا النظام. ومن ثمّ، يجب تحليل هذين المنهجين على مستويين مختلفين من التفسير: مستوى «الكيفية» ومستوى «الغائية»؛ وهذا التمييز يُوفّر الأرضية الملائمة لإجراء مقارنة منهجية، وتجنّب الخلط بين التفسير العلمي والتأويل اللاهوتي.

النظام الكوني في نهج البلاغة

يُعدّ وصف النظام الكوني والانسجام القائم بين أجزاء الكون من أبرز تجليات مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة. ففي نظرة الإمام علي (عليه السلام)، لا يمثّل الكون مجموعة متناثرة من الأشياء المستقلة، بل هو نظام مترابط، حيث يأخذ كل جزء منه مكانه المناسب ويعمل وفق تقدير ونسبة محددين. ويُعرّف هذا التصور للكون النظامَ بوصفه سمة أساسية لبنية الوجود (الخطبة: ١؛ ابن ميثم البحراني، ١٤٠٦هـ: ١/ ٣٩). وفي الخطبة الأولى من نهج البلاغة، وعند وصف الخلق، يُؤكَّد على مفاهيم مثل التقدير والتنظيم واستواء نظام الوجود. ويُبيّن الإمام علي (عليه السلام) أن خلق السماوات والأرض هو ثمرة العلم والحكمة الإلهيين، مُوضّحاً أن أجزاء العالم قد تشكّلت على أساس من التقدير الدقيق والعلاقة المتناغمة. ويُعبّر هذا الوصف عن أن النظام الكوني في نهج البلاغة ليس أمراً عَرَضياً أو وليد صدفة، بل هو متجذّر في البنية الوجودية للكون (الخطبة: ١؛ ابن أبي الحديد، ١٤٠٤هـ: ١/ ٣٩٩). وتُعدّ الخطبة ٩١ من أوسع الأوصاف المتعلقة بخلق العالم، حيث يُشير الإمام علي (عليه السلام) إلى خلق السماوات، وإرساء نظام الأفلاك، والترابط بين أجزاء العالم. وفي هذه الخطبة، يُقدَّم الكون بوصفه نظاماً متناغماً يحظى فيه كل موجود بمكانة ودور محددين. ومن وجهة نظر شُرّاح نهج البلاغة، يُعبّر التأكيد على «أحكام الصنعة» و«إتقان الخلق» عن أن نظام العالم في فكر الإمام علي (عليه السلام) ينبع من الحكمة والتدبير الإلهيين (الخطبة: ٩١؛ ابن ميثم البحراني، ١٤٠٦هـ: ٣/ ٥٦). ومن المنظور الفلسفي، يمكن اعتبار هذا الفهم للنظام نوعاً من "النظام العلائقي"؛ إذ لا تكمن الأهمية الرئيسية فيه في السمات الفردية للموجودات فحسب، بل في النسبة والانسجام القائم بينها. ويمكن مقارنة هذه الرؤية، إلى حد ما، ببعض المقاربات المعاصرة في فلسفة العلم التي تُشدّد على دور البنى والعلاقات في تفسير الطبيعة؛ على الرغم من اختلاف أسسها الأنطولوجية (Ladyman, 1998: 409–423). وفي علوم التعقيد[1] أيضاً، غالباً ما يكون النظام نتاجاً للعلاقات التبادلية بين مكوّنات النظام. وتُبيّن نظرية التنظيم الذاتي أن البُنى المنتظمة يمكن أن تنبثق من التفاعلات الديناميكية بين عناصر النظام (Nicolis & Prigogine: 1977). غير أن الاختلاف الجوهري بين هذه النظرية ورؤية نهج البلاغة يكمن في أن التنظيم الذاتي يتصدّى للآلية الطبيعية لانبثاق النظام، في حين يفسّر نهج البلاغة نظام الكون في إطار الحكمة والعلم والتدبير الإلهي.

1. Complexity Science

النظام البيولوجي وتنظيم الكائنات في نهج البلاغة

يُعدّ الوصف الدقيق لبنية الكائنات الحية والتأمل في سماتها المعقّدة من أهم تجليات مفهوم نظام الخلق في نهج البلاغة. ويتناول الإمام علي (عليه السلام) في بعض مقاطع نهج البلاغة، ولا سيما الخطب المتعلقة بخلق الحيوانات، الحديث عن مخلوقات كالنملة، والطاووس، والخفاش، والجراد. ومن خلال لفت الأنظار إلى دقة التكوين الجسدي، وانسجام الأعضاء، والتناسب بين الخصائص البيولوجية ونمط الحياة، يدعو الإنسان إلى إعمال الفكر في الحكمة والنظام الكامنَين في الخلق. وتُبيّن هذه الأوصاف أن النظام، من منظور نهج البلاغة، لا يقتصر على المستوى الكوني فحسب، بل يمتد ليشمل أدق مستويات الحياة أيضاً (الشريف الرضي، ١٤١٤هـ: ١٦٥– ١٨٥). ولدى وصفه للنملة، يُشير الإمام (عليه السلام) إلى السمات العجيبة لهذا المخلوق الصغير. ويُوجّه الأنظار إلى دقة بنية جسم النملة، وتناسق أعضائها، وأسلوب حركتها، وقدرتها على حمل الغذاء، والانسجام القائم بين أجزائها، مُحذِّراً الإنسان من الاستهانة بهذا المخلوق الصغير. والنقطة الجوهرية في هذا الوصف تكمن في أن تعقيد الكائن الحي ونظامه لا يرتبطان بحجمه أو ضخامته الظاهرية؛ بل إنه حتى في كائن بالغ الصغر، يمكن رصد شبكة متناغمة من العلاقات والوظائف (الخطبة: ١٨٥). ومن منظور فلسفة العلم المعاصرة، يمكن مقارنة هذه النظرة إلى الكائن الحي ببعض مباحث علوم التعقيد المتعلقة بالتنظيم متعدد المستويات وانبثاق النظام من تفاعل المكوّنات. ففي نظرية التنظيم الذاتي، تُعدّ الكائنات الحية نموذجاً للأنظمة المعقدة التي لا يكون فيها سلوك الكل مجرّد حصيلة لمجموع خصائص الأجزاء فحسب، بل ينبثق من التفاعلات القائمة بينها. فالخلايا، والأعضاء، والشبكات البيولوجية، من خلال ارتباطها المتبادل، تُشكّل بنية متماسكة تمتلك القدرة على الحفاظ على نفسها وإعادة إنتاجها(Kauffman, 1993: 173) وبالطبع، ثمّة اختلاف جوهري بين هذين المنهجين. ففي نظرية التنظيم الذاتي، يُفسَّر النظام البيولوجي كنتيجة للقوانين الطبيعية، والعمليات التطورية، والتفاعلات الداخلية للأنظمة؛ أما في «نهج البلاغة»، فيُؤوَّل هذا النظام ذاته بوصفه دليلاً على العلم والحكمة والتدبير الإلهي. وبعبارة أخرى، تُجيب علوم التعقيد في الغالب عن سؤال «كيف نشأ هذا التنظيم؟»، في حين يطرح «نهج البلاغة»، إلى جانب وصفه للنظام، تساؤلاً حول «الأساس الأنطولوجي لهذا النظام ومعنا». ومن الأمثلة الأخرى، وصف الطاووس في كلام الإمام (عليه السلام)، حيث يُلفت انتباه الإنسان، من خلال الإشارة إلى تناغم الألوان، وبنية الريش، وتناسق الأعضاء، والخصائص البيولوجية لهذا الطائر، إلى الترابط بين الجمال والبنية والوظيفة في الطبيعة. ويُمثّل هذا الوصف نموذجاً للاهتمام بالعلاقة بين البنية والوظيفة في الكائنات الحية (الخطبة: ١٦٥)؛ وهو موضوع يحظى بأهمية بالغة في علم الأحياء الحديث. ففي بيولوجيا الأنظمة، لا تنبثق سمات الكائن الحي من المكوّنات الفردية فحسب، بل تنجم عن التنظيم العلائقي القائم بينها (Capra & Luisi, 2014: 35).

ويُعدّ وصف الخفاش نموذجاً آخر للاهتمام بالتكيّفات المعقّدة للكائنات الحيّة. حيث يُشير الإمام علي (عليه السلام) إلى سمات مثل نمط الحياة، وبنية الجسم، وتكيّف هذا المخلوق مع بيئته (الخطبة: ١٦٥). ومن منظور العلوم البيولوجية الحديثة، يُعدّ تكيّف الكائنات مع الظروف البيئية من أهم دلالات التعقيد المنظَّم في الطبيعة. إذ تكتسب الأنظمة الحية، من خلال شبكة من العلاقات التبادلية، القدرة على الحفاظ على النظام في ظل الظروف المتغيّرة.(Capra & Luisi, 2014: 36) ومن النقاط الجوهرية في تحليل هذه الأوصاف أن «نهج البلاغة» لا ينظر إلى الكائنات الحيّة بوصفها مجموعة من القطع الميكانيكية المنفصلة عن بعضها البعض، بل يُقدّمها كأنظمة متناغمة ومترابطة. وتتقارب هذه الرؤية الشمولية، من بعض الوجوه، مع المقاربة النِظمية في العلوم المعاصرة؛ وهي مقاربة ترى أن إدراك النظام المعقّد يستلزم دراسة العلاقات بين مكوّناته وكيفية تنظيمها الذاتي. (Mitchell, 2009: 13) ومع ذلك، لا ينبغي المطابقة بين مفهوم النظام البيولوجي في «نهج البلاغة» ونظرية التنظيم الذاتي. فـ «نهج البلاغة»، في إطار اللاهوت التوحيدي، يعدّ نظام الموجودات دليلاً على حكمة

الخالق وقدرته، في حين تتصدّى نظرية التنظيم الذاتي، على المستوى العلمي، لبيان العمليات التي تتشكّل من خلالها البُنى المعقّدة في الطبيعة. وبناءً على ذلك، يجب اعتبار العلاقة بينهما علاقة حوار بين مستويين مختلفين من التفسير، لا علاقة تأكيد أو استخلاص نظرية علمية من نصّ ديني. وعلى هذا الأساس، يُبيّن تحليل الأوصاف البيولوجية في «نهج البلاغة» أن مفهوم نظام الخلق في هذا النص ينطوي على ثلاث سمات أساسية:

– الانتظام: حيث تُشكّل الكائنات الحيّة مجموعة متناغمة من الأجزاء؛

– التناسب بين البنية والوظيفة: حيث ترتبط سمات كل كائن بنمط حياته ومكانته في نظام الطبيعة؛

– الترابط بين الجزء والكل: حيث يستلزم إدراك الموجودات الاهتمام بالعلاقات القائمة بين الأجزاء والنظام الكلّي.

الأسس الأنطولوجية لنظام الخلق في نهج البلاغة؛ الحكمة، والتقدير، وقانونية الكون

يرتكز مفهوم نظام الخلق في «نهج البلاغة» على جملة من الأسس الأنطولوجية، لعلّ أهمها: الحكمة الإلهية، والتقدير الدقيق، ونظام العلية والقانونية، وغائية الخلق. وفي هذه الرؤية، نظام الكون يُعبّر عن البنية الجوهرية للوجود والعلاقة القائمة بين المبدأ المتعال ونظام الموجودات. ومن هذا المنظور، يكتسي عالم الطبيعة بنية عقلانية وقابلة للإدراك؛ إذ إنه تشكّل استناداً إلى علم الله وإرادته الحكيمة (ابن ميثم البحراني، ١٤٠٦هـ: ١/ ٥٦).

الحكمة الإلهية ونظام الخلق

يُعدّ مفهوم «الحكمة» من أكثر المفاهيم جوهرية في تفسير نظام الكون في «نهج البلاغة». ففي فكر الإمام علي (عليه السلام)، اللهُ حكيمٌ تجري أفعاله على أساس من العلم والقصد والغاية، وليس ثمّة ظاهرة في العالم تخلو من مكانتها وغايتها الخاصة. وعند وصفه لخلق السماوات والأرض، يؤكّد الإمام (عليه السلام) على استواء النظام الكوني وانسجامه وإتقانه. ويُبيّن هذا الوصف أن نظام العالم ليس وليد الصدفة أو الضرورة العمياء، بل هو ثمرة تدبير موجود عليم وحكيم (الشريف الرضي، ١٤١٤هـ: الخطبة: ٩١). ويعتبر ابن أبي الحديد «إحكام الصنعة» دليلاً على العلم والحكمة الإلهيين، ويرى أن الانسجام القائم بين أجزاء العالم يدل على وجود القصد والتدبير في نظام الخلق. ومن وجهة نظره، يُظهر نظام الموجودات أن الكون أُنشئ على أساس نظام عقلي، لا على أساس الصدفة والاضطراب (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤هـ: ٦/ ٣٥). وتتصل هذه الرؤية بمباحث الفلسفة الإسلامية حول العلاقة بين العلم الإلهي ونظام العالم. ففي الحكمة المتعالية عند ملا صدرا، يُعدّ نظام الوجود تجلياً للفيض الإلهي الذي تحقق استناداً إلى العلم السابق لله ومراتب الوجود. وبناءً على ذلك، فإن النظام القائم في العالم يُعدّ لازمةً حتمية للعلاقة بين العلة الأولى ومراتب الوجود في الكون (صدر الدين الشيرازي، ١٤٠١هـ: ٢/ ٢٧٥).

التقدير وتحديد المقادير في نظام الخلق

يُعدّ مفهوم «التقدير» من الركائز الأساسية الأخرى في إدراك نظام الكون في «نهج البلاغة». ويُقصد بالتقدير تحديد المقدار، والنسبة، والمكانة لكل موجود في نظام الوجود. ففي الخطبة الأولى من «نهج البلاغة»، وُصف خلق الكون بمفاهيم من قبيل «التقدير» و«الإحكام» و«التسوية»؛ وهي مفاهيم تُعبّر عن وجود نظام دقيق في بنية العالم (الشريف الرضي، ١٤١٤هـ: الخطبة ١). ومن وجهة نظر المفسّرين، لا يُفضي التقدير الإلهي إلى نفي قانونية الطبيعة، بل على العكس من ذلك، فهو يُبيّن أن القوانين والعلاقات القائمة بين الظواهر تُشكّل بدورها جزءاً من النظام الإلهي المقدَّر. ويرى العلامة الطباطبائي أن التقدير يتمثّل في تحديد حدود الموجودات وسماتها وعلاقاتها، معتقداً أن كل موجود في نظام الخلق يحظى بمقدار ومكانة خاصين يعمل بمقتضاهما (الطباطبائي، ١٤١٧هـ: ١٧/ ٣٦٣). ومن هذا المنظور، لا تُمثّل الطبيعة مجموعة عشوائية من الحوادث، بل هي شبكة من العلاقات المنتظمة والضرورية. وهذا التصوّر للكون يُتيح إمكانية نشأة العلم وتأسّسه؛ إذ لو كانت الطبيعة تفتقر إلى النظام والقانونية، لاستحال تحقيق المعرفة العلمية بها.

العلية وقانونية الطبيعة

ومن الأسس الأخرى لنظام الخلق في «نهج البلاغة» الإقرار بالبنية القانونية للكون، حيث تُبيّن أوصافه للطبيعة أن العالم ينطوي على علاقات ثابتة ومنتظمة. وفي هذه الرؤية، تتحقّق الظواهر الطبيعية استناداً إلى السنن والقوانين الإلهية. وتتّسق هذه الرؤية مع مبدأ العلية في الفلسفة الإسلامية. فقد أيقن الفلاسفة المسلمون بأن الإرادة الإلهية تسري عبر منظومة العلل والأسباب في الكون، ولا تتعارض معها. ويرى ملا صدرا أن النظام العِلّي للكون يُعدّ تجلياً للنظام الوجودي ومراتب الفيض الإلهي، وأن إنكار العلية الطبيعية يُفضي إلى إنكار الحكمة الكامنة في بنية الوجود (صدر الدين الشيرازي، ١٤٠١هـ: ٦/ ١٥٣). ومن هذا المنظور، تُعدّ قوانين الطبيعة جزء لا يتجزأ من النظام الحكيم الذي يُدبّر الكون بمقتضاه. ويُتيح هذا الفهم إمكانية إقامة حوار بين مفهوم «القانون الطبيعي» في العلم الحديث ومفهوم «السنة الإلهية» في اللاهوت الإسلامي.

غائية نظام الخلق

ومن السمات البارزة الأخرى للنظام في «نهج البلاغة» ارتباطه الوثيق بالغاية والمعنى. ففي هذه الرؤية، لا يقتصر الكون على امتلاك نظام بُنيوي فحسب، بل إن هذا النظام يتّسم بالاتجاه والهدف. فللموجودات مكانتها في نظام الخلق، ويؤدّي كل منها دوراً في تحقيق الحكمة الكلية للكون. وتختلف هذه الرؤية اختلافاً جوهرياً عن نظرية التنظيم الذاتي. فنظرية التنظيم الذاتي تبيّن كيفية انبثاق النظام من التفاعلات الداخلية للأنظمة، غير أنها لا تفصل في وجود غاية نهائية لهذا النظام من عدمها. وفي المقابل، يفسّر «نهج البلاغة» نظام العالم في إطار الحكمة والغائية الإلهيتين. وبناءً على ذلك، يتموقع «نهج البلاغة» ونظرية التنظيم الذاتي على مستويين مختلفين من التفسير: المستوى العلمي: كيفية تشكّل البُنى المنتظمة في الطبيعة. والمستوى الفلسفي واللاهوتي: سبب تمتّع الكون بالنظام والقانونية. وهذا التمييز يُتيح إمكانية إجراء حوار منهجي بين المجالين، ويحول دون اختزال أحدهما في الآخر.

التحليل المقارن لنظام الخلق في نهج البلاغة ونظرية التنظيم الذاتي

على الرغم من أن نظرية التنظيم الذاتي في علوم التعقيد ومفهوم نظام الخلق في «نهج البلاغة» ينطلقان من تقليدين معرفيين مختلفين، إلا أنهما يلتقيان في نقطة مشتركة، ألا وهي التأكيد على وجود النظام والانسجام في العالم الطبيعي. غير أن هذين المنهجين يختلفان اختلافاً جوهرياً في الأسس الأنطولوجية، ومنهج التفسير، ومستوى التساؤلات المطروحة. فمن منظور نظرية التنظيم الذاتي، لا يُعدّ النظام القائم في الطبيعة بالضرورة نتاجاً لتدخّل عامل خارجي في كل مرحلة من مراحل العملية، بل يمكن أن ينبثق من التفاعلات الداخلية بين مكوّنات النظام المعقّد. وفي هذه الرؤية، تُعدّ ظواهر مثل تشكّل الأنماط البيولوجية، والبُنى الفيزيائية، وتنظيم الأنظمة المعقّدة، ثمرة للعلاقات غير الخطية، وآليات التغذية الراجعة، والديناميكيات الداخلية للأنظمة (Nicolis & Prigogine, 1977; Kauffman, 1993). وفي المقابل، يفسّر «نهج البلاغة» نظام الكون في إطار الحكمة والعلم والتدبير الإلهي. فمن نظرة الإمام علي (عليه السلام)، يُشير الانسجام القائم بين أجزاء العالم إلى أن الخلق قد تشكّل على أساس من التقدير الدقيق، والقانونية، والغاية المحددة. وبناءً على ذلك، لا يُمثّل نظام الطبيعة مجرّد ظاهرة قابلة للملاحظة فحسب، بل هو تجلٍّ للحكمة الإلهية والبنية العقلانية للوجود (الشريف الرضي، ١٤١٤هـ: الخطبتان ١ و٩١؛ ابن ميثم البحراني، ١٤٠٦هـ: ١/ ٤٥).

نقاط الالتقاء

تتمثّل أول نقطة التقاء بين هذين المنهجين في الإقرار بالمبدأ القائل إن العالم الطبيعي يخلو من الفوضى المطلقة، وإن علاقات منتظمة تسري بين أجزائه. فبينما تعدّ نظرية التنظيم الذاتي النظامَ ثمرةً للتفاعلات المعقّدة بين المكوّنات، يُشدّد «نهج البلاغة» على الانسجام والتناسب القائم بين الموجودات. وأمّا نقطة الالتقاء الثانية، فتتمثّل في النظرة غير الاختزالية للكون. ففي علوم التعقيد، لا يمكن إدراك سمات النظام الكلّي بمجرد دراسة مكوّناته الفردية فحسب؛ ذلك أن العلاقات القائمة بين هذه المكوّنات تلعب دوراً

جوهرياً في انبثاق النظام فيما بينها (Mitchell, 2009: 5). وفي «نهج البلاغة»، لا تُنظَر الموجودات بصفتها كيانات فردية منفصلة عن نظام الخلق الشامل، بل إن كل موجود يحتل مكانته ضمن شبكة من العلاقات والحكمة الإلهية.

الاختلافات الجوهرية

على الرغم من أوجه الالتقاء هذه، يكمن الاختلاف الرئيسي بين الرؤيتين في مستوى التفسير. فنظرية التنظيم الذاتي هي نظرية علمية تتناول كيفية انبثاق النظام؛ أي تُبيّن كيف يمكن للتفاعلات الطبيعية أن تؤدي إلى نشأة بُنى منتظمة. أما «نهج البلاغة»، فإلى جانب تناوله للكيفية، يُولي اهتماماً للتساؤل حول أساس النظام ومعناه، ويربطه بالعلم والحكمة الإلهيين. وبعبارة أخرى، تعمل نظرية التنظيم الذاتي على مستوى التفسير الآلي[1]، في حين يتناول «نهج البلاغة» الموضوع على مستوى التفسير الأنطولوجي والغائي[2]. وبناءً على ذلك، لا يمكن اعتبار إحداهما بديلاً عن الأخرى؛ بل يمكن لكل منهما، في سياق حوار متعدد التخصصات، أن يمثّل مستوى مختلفاً من مستويات فهم نظام الكون.

إمكانية الحوار بين فلسفة العلم واللاهوت

تُبيّن الدراسة المقارنة بين هاتين الرؤيتين أن ما توصلت إليه العلوم الحديثة من نتائج بشأن التعقيد والتنظيم الذاتي لا يفضي بالضرورة إلى نفي التأويلات الفلسفية واللاهوتية لنظام الكون. فالعلوم التجريبية تتصدى لدراسة الآليات الطبيعية، في حين تطرح الفلسفة واللاهوت تساؤلات حول أسس هذه الآليات، ومعناها، وغاياتها. وعلى هذا الأساس، يمكن توظيف نظرية التنظيم الذاتي بوصفها إطاراً علمياً لاستيعاب العمليات الطبيعية للتَّنظُّم، في حين يمكن لـ«نهج البلاغة» أن يفتح أفقاً فلسفياً للتأمل في مكانة هذا النظام ضمن نظام الوجود الشامل. ولا تُؤكّد هذه المقاربة على المطابقة التبسيطية بين المفاهيم الدينية والنظريات العلمية، بل تُشدّد على إقامة حوار نقدي بين العلم واللاهوت.

نتائج البحث

تُظهر أولى نتائج البحث أن مفهوم نظام الخلق في «نهج البلاغة» ينطوي على إمكانات تتجاوز مجرّد الوصف اللاهوتي المحض. ففي هذا النص، يُقدَّم العالم بوصفه نظاماً ديناميكياً ومتناغماً ومنتظماً، حيث ترتبط كل مكوّن من مكوّناته بعلاقة تبادلية مع سائر الأجزاء. وتُبيّن مفاهيم مثل التقدير، والإتقان، والحكمة، والتدبير أن النظام، من منظور «نهج البلاغة»، يُشكّل بنية جوهرية في الوجود، وأن الطبيعة تتمتع بنوع من التنظيم الداخلي (الشريف الرضي، ١٤١٤هـ: الخطبتان ١ و٩١). وأظهرت النتيجة الثانية أن نظرية التنظيم الذاتي في علوم التعقيد يمكنها تقديم تفسير علمي لجزء من هذا التنظيم. فوفقاً لهذه النظرية، تمتلك الأنظمة الطبيعية القدرة على بلوغ بُنى منتظمة ومعقّدة من خلال التفاعلات الداخلية، وآليات التغذية الراجعة، والعلاقات غير الخطية (Nicolis & Prigogine, 1977; Haken, 1983). وبناءً على ذلك، يمكن النظر إلى التنظيم الذاتي بوصفه الآلية الطبيعية لانبثاق النظام في الكون.

وتُعبّر النتيجة الثالثة للبحث عن إمكانية نشوء علاقة تكاملية بين مفهوم النظام في «نهج البلاغة» ونظرية التنظيم الذاتي. فـ«نهج البلاغة» يتحدّث عن النظام بوصفه سمة حكيمة لنظام الوجود، في حين تفسّر علوم التعقيد كيفية تحقّق هذا النظام على مستوى العمليات الطبيعية. وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار التنظيم الذاتي أحد تجليات قانونية الطبيعة وانتظامها؛ أي أنه ذات النظام الإلهي الذي يتجسد على مستوى الطبيعة من خلال القوانين والعلاقات الداخلية للأنظمة.

وتُبيّن النتيجة الرابعة أنه، خلافاً للافتراض القائم على التعارض بين التفسير العلمي والتأويل اللاهوتي، يمكن تقديم نموذج تكاملي يُعتبر فيه التسلسل: «الحكمة الإلهية ← قوانين الطبيعة ← التفاعلات الداخلية للأنظمة ← انبثاق النظام المعقد» سلسلة تفسيرية متكاملة. وفي هذا الإطار، لا تُشكّل نظرية التنظيم الذاتي بديلاً عن مفهوم النظام الإلهي، بل تُعدّ تفسيراً لإحدى الكيفيات

1. Mechanistic explanation

2. Ontological and teleological explanation

التي يتحقق بها في العالم الطبيعي. وتتمثّل النتيجة الخامسة في أن هذه المقاربة تتيح إعادة قراءة جديدة للعلاقة بين العلم واللاهوت. ففي هذه القراءة، يُبيّن العلم الحديث أن الطبيعة تمتلك قدرات داخلية لإحداث النظام، بينما يفسّر اللاهوت الإسلامي هذه القدرات ضمن إطار أوسع يشمل حكمة الوجود وغايته. وبالتالي، يمكن إرساء نوع من التآزر المفاهيمي بين مفهوم «التنظيم الذاتي» في علوم التعقيد ومفهوم «النظام الحكيم للخلق» في «نهج البلاغة».

الخاتمة

أظهرت نتائج البحث أن مفهوم النظام في «نهج البلاغة» يمكن تحليله على ثلاثة مستويات مترابطة: النظام البنيوي، والنظام العلائقي، والنظام الغائي. ففي المستوى الأول، تدل أوصاف «نهج البلاغة» للخلق على انسجام أجزاء العالم وتناسبها. وفي المستوى الثاني، لا تُفهَم الموجودات بوصفها عناصر منفردة، بل في إطار مجموعة من العلاقات والتأثيرات المتبادلة. وفي المستوى الثالث، لا يُمثّل هذا النظام مجرّد ترتيب عشوائي أو ميكانيكي، بل يُؤوَّل في إطار حكمة الخلق وغايته. ومن هذا المنظور، يتمتع النظام في «نهج البلاغة» بسمات يمكن مقارنتها ببعض مكوّنات الرؤية النِظمية في علوم التعقيد.

وفي المقابل، أظهر تحليل نظرية التنظيم الذاتي أن النظام في الأنظمة المعقدة لا يستلزم بالضرورة توجيهاً مباشراً ولحظياً من خارج النظام؛ بل يمكن أن ينبثق، في ظل شروط محددة، عبر التفاعلات غير الخطية بين المكوّنات، والتغذية الراجعة، وتبادل الطاقة والمادة مع المحيط، والابتعاد عن حالة التوازن، وتشكّل الأنماط الجماعية. وبناءً على ذلك، فإن من أهم النتائج أن «التنظيم الذاتي» يجب أن يُعدّ تفسيراً لآلية نشأة بعض الأنماط المنتظمة في الطبيعة والحفاظ عليها، لا نظريةً تتناول المنشأ النهائي لقوانين الطبيعة أو غاية الوجود. وأظهرت مقارنة الإطارين أن أهم نقطة تقارب بينهما تكمن في النظرة الشمولية والعلائقية للنظام. ففي كليهما، لا يُفسَّر سلوك الكل وسماته بمجرد دراسة المكوّنات بشكل منفرد، بل تكتسي العلاقات بين المكوّنات وكيفية تنظيمها أهمية جوهرية. كما يُشدّد كلا الإطارين على وجود نوع من الانسجام على المستوى الكلي؛ مع الفرق أن علوم التعقيد تدرس هذا الانسجام على مستوى وصف الآليات الطبيعية، في حين يضعه «نهج البلاغة» على مستوى تفسير حكمة نظام الخلق ومعناه.

ومع ذلك، أظهرت النتائج أنه لا ينبغي اعتبار أوجه التشابه هذه تكافؤاً مفاهيمياً أو علمياً بين النظريتين. فنظرية التنظيم الذاتي هي إطار علمي لبيان الشروط والعمليات التي يمكن أن ينبثق من خلالها النظام في الأنظمة الطبيعية؛ في حين يكتسب مفهوم النظام في «نهج البلاغة» معناه في إطار فلسفي لاهوتي، من خلال مفاهيم مثل الحكمة، والتناسب، والغائية، وتدبير الخلق.

وعلى هذا الأساس، يمكن صياغة العلاقة بين هذين المجالين بوصفها علاقة بين مستويين مختلفين من التساؤل حول النظام: إذ تُجيب علوم التعقيد في الغالب عن سؤال "كيف ينبثق النظام؟"، في حين يطرح «نهج البلاغة» تساؤلاً حول "الإطار الحكيم والغائي الذي يمكن فهم هذا النظام من خلاله". ويحول هذا التمييز دون اختزال أحد المجالين في الآخر، وفي الوقت ذاته يُتيح إمكانية إجراء حوار منهجي بين العلم واللاهوت. ولا تكمن جدّة هذا البحث في مجرد إيجاد تشابه بين «النظام» في «نهج البلاغة» و«التنظيم الذاتي» فحسب، بل في التمييز الدقيق بين مستوى التفسير العلمي ومستوى التأويل الفلسفي اللاهوتي، وبيان إمكانية إقامة صلة منهجية بين هذين المستويين. وبناءً على ذلك، يمكن اعتبار التنظيم الذاتي إحدى الآليات العلمية القابلة للدراسة لانبثاق النظام في الأنظمة الطبيعية، دون أن تفصل هذه الآلية بمفردها في المنشأ النهائي لقوانين الطبيعة، أو غاية الخلق، أو الأساس الميتافيزيقي للنظام.

المصادر

ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله. (١٤٠٤هـ). **شرح نهج البلاغة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي. (١٤٠٦هـ). **شرح نهج البلاغة**. قم: مكتب نشر الكتاب.

الشريف الرضي، محمد بن الحسين. (١٤١٤هـ). **نهج البلاغة**. تحقيق صبحي صالح. قم: هجرت.

صدر الدين الشيرازي. (١٤٠١هـ). **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الطباطبائي، محمد حسين. (١٤١٧هـ). **الميزان في تفسير القرآن**. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

المصادر الإنجليزية

Capra, F, & Luisi, P. L. (2014). **The systems view of life: A unifying vision**. Cambridge University Press.

Ellis, G. F. R. (2006). **Physics, complexity and causation**. In P. Clayton & P. Davies (Eds.), the re-emergence of emergence: The emergentist hypothesis from science to religion (pp. 303–322). Oxford University Press.

Haken, H. (1983). ***Synergetics: An introduction***. (3rd Ed). Springer.

Hooker, C. (Ed.). (2011). ***Philosophy of complex systems***. Elsevier.

Kauffman, S. A. (1993). **The origins of order: Self-organization and selection in evolution.** Oxford University Press.

Ladyman, J. (1998). **What is structural realism? *Studies in History and Philosophy of Science***. *Part A, 29*(3), 409–424. https://doi.org/10.1016/S0039-3681(98)00020-5

Mitchell, M. (2009). **Complexity: A guided tour**. Oxford University Press.

Nicolis, G., & Prigogine, I. (1977). **Self-organization in nonequilibrium systems: From dissipative structures to order through fluctuations**. Wiley.

دراسات حديثة في نهج البلاغة

سال نهم، شماره یکم، پیاپی ۱۷، پاییز و زمستان ۱۴۰۴ (۱۷۹-۱۹۲)
DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505

«مقاله پژوهشی»

تحلیل مفهوم نظم آفرینش در نهج‌البلاغه؛ بازخوانی تطبیقی در پرتو نظریه خودسازمان‌یافتگی

اکبر توحیدلو

عضو هیات علمی گروه معارف اسلامی دانشگاه ملی مهارت، تهران، ایران.

نویسنده مسئول:
اکبر توحیدلو
رایانامه: tohidlou53@yahoo.com

تاریخ دریافت: ۱۴۰۵/۰۶/۰۵
تاریخ پذیرش: ۱۴۰۵/۰۶/۱۹

استناد به این مقاله:
توحیدلو، اکبر. (۱۴۰۴). تحلیل مفهوم نظم آفرینش در نهج‌البلاغه؛ بازخوانی تطبیقی در پرتو نظریه خودسازمان‌یافتگی. *دراسات حديثة في نهج البلاغة*، ۹(۱)، ۱۷۹-۱۹۲.
(DOI: 10.30473/anb.2026.78994.1505)

چکیده

مفهوم نظم آفرینش در نهج‌البلاغه، از منظر تبیین ساختار و روابط حاکم بر جهان، ظرفیت بررسی در چارچوب گفت‌وگوی میان الهیات اسلامی و فلسفه علم معاصر را دارد. در علوم پیچیدگی، نظریه خودسازمان‌یافتگی به بررسی شرایط و فرایندهایی می‌پردازد که طی آن‌ها الگوهای منظم و ساختارهای سازمان‌یافته می‌توانند از تعاملات درونی اجزای سامانه‌های پیچیده پدیدار شوند. پژوهش حاضر با روش تحلیل مفهومی و تطبیقی، مؤلفه‌های نظم آفرینش در نهج‌البلاغه را با مفاهیم اساسی نظریه خودسازمان‌یافتگی مقایسه می‌کند و حدود امکان برقراری ارتباط میان این دو چارچوب را بررسی می‌نماید. یافته‌ها نشان می‌دهد که در نهج‌البلاغه، نظم آفرینش با مؤلفه‌هایی همچون تناسب اجزا، پیوستگی موجودات، هماهنگی نظام هستی و قانونمندی طبیعت توصیف می‌شود؛ در حالی که نظریه خودسازمان‌یافتگی، نظم را در سطح سازوکارهای طبیعی، از طریق تعاملات غیرخطی، بازخورد، پویایی دور از تعادل و شکل‌گیری الگوهای جمعی تبیین می‌کند. مقایسه دو چارچوب نشان می‌دهد که مهم‌ترین امکان گفت‌وگو میان آن‌ها در نگرش کل‌نگر و رابطه‌ای به نظم است؛ با این حال، این همگرایی به معنای هم‌ارزی مفهومی یا علمی آن‌ها نیست. بر این اساس، خودسازمان‌یافتگی را می‌توان در سطح تبیین علمی، یکی از سازوکارهای ظهور نظم در برخی سامانه‌های طبیعی دانست، بدون آنکه این نظریه به‌تنهایی درباره منشأ نهایی قوانین طبیعت یا غایت آفرینش داوری کند. نتیجه پژوهش نشان می‌دهد که تفکیک میان سطح تبیین سازوکارهای طبیعی و سطح تفسیر فلسفی الهیاتی نظم می‌تواند مبنایی روشمند برای گفت‌وگوی میان علوم پیچیدگی و حکمت اسلامی فراهم آورد.

واژه‌های کلیدی

نهج‌البلاغه، نظم آفرینش، خودسازمان‌یافتگی، علوم پیچیدگی.

حق انتشار این مستند، متعلق به نویسندگان آن است. ۱۴۰۴ ©. ناشر این مقاله، دانشگاه پیام نور است.
این مقاله تحت گواهی زیر منتشرشده و هر نوع استفاده غیرتجاری از آن مشروط بر استناد صحیح به مقاله و با رعایت شرایط مندرج در آدرس زیر مجاز است.
Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International license (https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/)